المجلس الإسلامي العلمائي
Olama Islamic Council

التوبة فلاح ونجاح

سماحة العلامة السيد عبد الله الغريفي

www.olamaa.net

مقدمة

عندما ينظر الإنسان نظرة موضوعيّة إلى منظومة الإسلام فسيجدها وحدة متكاملة الحلقات كلّ واحدة منها تدفع بالأخرى إلى الأمام من أجل بلوغ الغاية والهدف السامي الذي خلقنا الله سبحانه من أجله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات:٥٦.

ومن خلال ما نستشفّه من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾ العنكبوت: ٤٥، نجد أبعادًا عباديّة، وأخرى تربويّة، وثالثة اجتماعيّة، وكلّها تصبّ في مصبٍّ واحدٍ يتطلّع إلى أنْ يكون الإنسان ميمِّمًا قلبه نحو ملكوت السماء، ورحابها.

فعلى الصعيد العبادي، فهي ترمي إلى جعل الإنسان عبدًا لله سبحانه وحدَه، وإذا صار عبدًا له كان حرًّا أمام سواه.

وعلى الصّعيد التربوي نجد أنّ الآية ترتبط بنفس الإنسان واستقامته؛ لتجعل صلاته عاملاً مؤثّرًا فاعلاً في نفسه لكونها صِلة بين العبد وربّه.

وأمّا على الصّعيد الاجتماعيّ نجد أنّ المقوِّم الأخلاقيّ الذي يتفجّر من تلك الصّلاة يُلقي بظلاله على المجتمع، فعندما تؤثر أثرها على مقيمها إقامة تامة سينعكس بلا ريب على بيئته ومحيطه بشكل خلاّق.

ومن أجل استلهام ما ترمي إليه الآية المباركة من أنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وما لها من دلالات أخرى سامية، ولِما تمثّله هذه الصّلاة من أهمية في وجدان المسلم حيث إنّها وتد الإسلام الخالد وعموده الصلب، ولكونها "إنْ قُبلت قُبل ما سواها، وإنْ ردّت رُدّ ما سواها"، ولما تمثّله من أساس ومنطلق في صياغة شخصيّة المؤمن، ولأنّها أول ما افترضه الله سبحانه على النّاس، وآخر ما أوصى به الأنبياء عليهم السلام.

فقد طرح المجلس الإسلاميّ العلمائيّ عنوان ﴿كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ لموسم (نداءات التوبة) لهذا العام ١٤٣٠هـ، وهو الموسم الثّالث من المشروع الأخلاقيّ والرّوحيّ الذي أطلقه المجلس الإسلاميّ العلمائيّ قبل سنتين في أواخر شهر شعبان باسم (نداءات التوبة)، وذلك كتمهيد وتهيئة للنفوس المؤمنة للدخول في ضيافة الله تعالى في شهره الكريم (شهر التوبة والمغفرة)، ولما تمثله التوبة من مشروع تربويّ إلهيّ كبير يسهم في الرقيّ والكمال وتحقيق السعادة دنيا وآخرة، وهو طموح ومنية كلّ مؤمن وداعية إلى الحقّ.

جهاز الكتابة والتأليف

التّوبة فلاح ونجاح

﴿**وتوبوا إلى الله جميعًا أيّها المؤمنون لعلكم تفلحون**﴾ (النور/٣١).

في لحظة من لحظات الجهل والضعف والهوى والنزق والتمرّد والغرور يسقط الإنسان في مستنقع (المعصية)، هكذا تنهزم الإرادة، وتتلوّث النفس، وتتيه الرؤية، وينحرف المسار، ويفرح الشيطان، ويغضب الربُّ الجليل.

آثار المعاصي والذّنوب:

وكم للمعصية من آثارٍ خطيرة وخطيرة جدًا، هذه بعض منها:

(أ) آثار في الدنيا:

وتنقسم هذه الآثار إلى:

أ ـ آثار روحيّة:

ومن أمثلتها:

١ ـ ظلمة القلب واسوداده (قسوة القلب):

- ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين/١٤).
- «ما جفّت الدموع إلا لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب».[١]
- «من أكل الحرام اسودّ قلبه، وضعفت نفسه وقلت عبادته...».
- «إذا أذنب العبد نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا تاب صقل منها، فإن عاد زادت حتى تعظم في قلبه».[٢]

١. الصدوق: علل الشرائع ٨١/١.

٢. المتقي الهندي: كنز العمال ١٠٢٨٨، الريشهري: ميزان الحكمة ٢٦١٠/٣.

٢ـ الخمول العبادي والجفاف الروحي:

■ ﴿. . . وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى . . .﴾ (النساء/١٤٢).

■ «. . . وقلت عبادته».

■ «كيف يجد لذة العبادة من لا يصوم عن الهوى».[١]

٣ـ الحرمان من صلاة الليل:

■ «إنّ الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل، . . .».[٢]

■ «إنّ الرجل ليكذب الكذبة فيحرم بها صلاة الليل، فإذا حرم صلاة الليل حرم بها الرزق».[٣]

■ جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال يا أمير المؤمنين: إنّي قد حرمت قيام الليل! فأجابه أمير المؤمنين عليه السلام: «أنت رجلٌ قد قيدتك ذنوبك».[٤]

٤ـ الحرمان من فيوضات العلم الرباني:

■ ﴿. . . وَاتَّقُوا اللّه وَيُعَلِّمُكُمُ اللّه وَاللّه بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة/٢٨٢).

■ قال أمير المؤمنين عليه السلام «حرام على كلّ قلب مغلول بالشهوة أن ينتفع بالحكمة».[٥]

■ ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «من أكل الحلال أربعين يومًا، نوّر الله قلبه، وأجرى الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه».[٦]

---

١. الريشهري: ميزان الحكمة ٣/ ١٨٠٥، الآمدي: غرر الحكيم ٢٥٥٤ ح ١٢.

٢. الريشهري: ميزان الحكمة ٣/٩٩٥.

٣. الصدوق: علل الشرائع ٢/٢٦٢.

٤. الكليني: الكافي ٣/٤٥٠/ح٣٤.

٥. الريشهري: ميزان الحكمة ٤/٣٤٨٢، غرر الحكم ٤٩٠٢.

٦. الفيض الكاشاني: المحجة البيضاء ٣/٢٠٤.

■ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اتقوا الذنوب فإنّها ممحقة للخيرات، إنّ العبد ليذنب الذنب فينسى به العلم الذي كان قد تعلّمه».[1]

٥ـ المعاصي تمنع قبول الأعمال، وتمنع استجابة الدعاء:

■ ﴿... إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة/٢٧).

■ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أغتاب مسلمًا أو مسلمة لم يقبل الله صلاته ولا صيامه أربعين يومًا وليلة، إلا أن يغفر له صاحبه».[2]

■ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدًا».[3]

■ عن أمير المؤمنين عليه السلام: «كم من صائم ليس له من صيامه إلا الظمأ والجوع، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا العناء».[4]

■ «اللهمّ اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء».[5]

من الذنوب التي تحبس الدعاء - حسب الرّوايات - عقوق الوالدين، قطيعة الرحم، أكل الحرام، الظّلم...

ب ـ آثار ماديّة:

جاء في دعاء كميل إشارة إلى بعض هذه الآثار:

■ «اللهمّ اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم ...»، تهتك العصم: تفضح السر. ومن الذنوب التي تفضح السّر كما جاء في بعض الرّوايات: شرب الخمر، الغيبة، السّخرية، لعب القمار...

---

١. الريشهري: ميزان الحكمة ٣/٩٩٥.
٢. المجلسي: البحار ٧٥/٢٥٨/ح٥٣.
٣. الطبراني: المعجم الكبير ١١/٤٦/١١٠٢٥.
٤. الحر العاملي: وسائل الشيعة ١/٥١.
٥. من دعاء كميل لأمير المؤمنين عليه السلام.

■ «اللهمّ اغفر لي الذنوب التي تنزل النّقم، اللهمّ اغفر لي الذنوب التي تغيّر النعم...» من هذه الذنوب : الزّنا، القتل ...

■ «اللهمّ اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء ».

وما أكثر الذّنوب التي تنزل البلاء والمحن والفتن والأزمات.

■ ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ . . .﴾ (الروم/٤١).

■ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه/١٢٤).

(٢) آثار عند قبض الروح:

■ ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق/١٩).

■ عن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «أشدّ ساعات ابن آدم ثلاث ساعات: الساعة التي يعاين فيها ملك الموت، والساعة التي يقوم فيها من قبره، والساعة التي يقف فيها بين يدي الله تبارك وتعالى ».[1]

من الآثار الخطيرة للمعاصي والذنوب في لحظة الاحتضار:

أ. شدّة سكرات الموت...

ب. العديلة عند الموت (العدول من الإيمان إلى الضلال).

ولذلك ورد الحثّ على:

- التقوى وتجنب المعاصي من أجل الخلاص من شدائد هذه اللحظة الرهيبة (لحظة خروج الروح).

- الإكثار من قراءة هذه الآية: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران/٨).

---

١. المجلسي: الخصال، ص١١٩، ح١٠٨.

ـ الإكثار من هذا الدعاء: «اللهمّ إنّي أعوذ بك من العديلة عند الموت».[1]

ـ الإكثار من قول: «اللهمّ إني أسألك الرّاحة عند الموت والعفو عند الحساب».[2]

(٣) آثار في القبر:

أ. **ظلمة القبر ووحشته**، وقد جاء في الرّوايات التأكيد على بعض الأمور التي تخفّف من وحشة القبر وظلمته:

- التقوى والورع...
- الإكثار من الصلاة على محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله.
- قراءة سورة (يس) قبل النوم.
- عيادة المرضى.
- إدخال السّرور على المؤمنين.

ب ـ **شدة المساءلة في القبر** ...

ج ـ **ضغطة القبر وعذاب القبر، كلّ المعاصي والذنوب لها آثارها الصعبة في داخل القبر**، وقد ورد التأكيد على بعض الأمور:

- التهاون بالطّهارة.
- التهاون بالصّلاة.
- سوء الخلق مع الأهل.
- الغيبة والنميمة.
- التقصير في قضاء حوائج الإخوان ...

---

١. الطوسي: مصباح المتهجد، ص٧٩٨.

٢. الطوسي: مصباح المتهجد، ص٨٥١.

(٤) آثار في القيامة:

أ. التعثّر على الصّراط:

«إنّ على جهنّم جسرًا أدق من الشعر، وأحدّ من السيف، هو ذا الصّراط».[١]

«وأنّ الناس يمرون على الصراط طبقات:

- فمنهم من يمرّ كالبرق.
- ومنهم من يمرّ مثل عدو الفرس.
- ومنهم حبوًا.
- ومنهم مشيًا.
- ومنهم من يمرّ متعلقًا قد تأخذ النار منه شيئًا وتترك شيئًا»[٢].

ب. أهوال وشدائد القيامة:

■ ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج/١-٢).

■ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس/٣٤-٣٧).

ج. عذاب النّار:

■ ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة/٨١).

■ ﴿أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يونس/٨).

■ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ . . .﴾ (السجدة/٢٠).

---

١. الريشهري: ميزان الحكمة ٣/١٦١٠، كنز العمال: ٢٩٠٣٦.

٢. أمالي الصدوق: ١٤٩/٤.

■ ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ (الجن/٢٣).

باب التوبة والإنابة

باب مفتوح للعاصين والمتمردين والتائهين، تلك رحمة من الله سبحانه بعباده المذنبين والمسرفين، وقد أكّدت آياتٌ وروايـاتٌ قيمة التوبة والتائبين، وقيمة الإنابة والمنيبين.

هذه نماذج منها:

(١) قولـه تعـالى في سورة البقـرة (الآيـة/ ٢٢٢): ﴿. . إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

(٢) قوله تعالى في سورة النور (الآية/ ٣١): ﴿. . . وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

(٣) قوله تعالى في سورة التحريم (الآية/ ٨): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ . . .﴾.

(٤) قولـه تعـالى في سورة الشورى (الآية/ ٢٥) : ﴿وَهُـوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾.

(٥) قوله تعالى في سورة المؤمن (الآية/ ٣): ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾.

(٦) قولـه تعالى في سورة النسـاء (الآية/ ١١٠): ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُـوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

(٧) قولـه تعالى في سـورة الزمر (الآية/٥٣): ﴿قُلْ يَا عِبَـادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

(٨) قولـه تعـالى في سورة النساء (الآية/ ٤٨): ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ . . .﴾.

(٩) قولـه تعـالى في سورة المائـدة (الآية/ ٣٩): ﴿فَمَـنْ تَابَ مِنْ بَعْـدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١٠) قولـه تعالى في سورة الأنعـام (الآية/ ٥٤): ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَـا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١١) قولـه تعـالى في سورة مـريم (الآيـة/ ٦٠): ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَـنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾.

(١٢) قولـه تعـالى في سورة الفرقان (الآيـة/ ٧٠): ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَـلاً صَالِحًـا فَأُوْلَئِكَ يُبَـدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَـاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

(١٣) قوله تعالى في سورة طه (الآية/٨٢): ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾.

(١٤) قولـه تعالى في سورة الزمر (الآية/٥٤): ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ﴾.

(١٥) قولـه تعالى في سـورة الروم (الآية/٣١): ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْـهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾.

(١٦) وقـال رسول الله ﷺ: «التائـب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له».[1]

١. الكاشاني: المحجة البيضاء ٧/٧.

(١٧) وقال صلى الله عليه وآله: «لله أشدّ فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دَوِّية (لا نبت فيها) مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام فاستيقظ، وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتدّ عليه الحر والعطش أو ما شاء الله، قال ارجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ وعنده راحلته عليها زاده وشرابه، فالله أشدّ فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته».[١]

(١٨) وقال صلى الله عليه وآله: «إنّ الله - تعالى - يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار، ولمسيء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها».[٢]

(١٩) وقال صلى الله عليه وآله: «لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء، ثمّ ندمتم لتاب الله عليكم».[٣]

(٢٠) وقال صلى الله عليه وآله: «إنّ العبد ليذنب الذنب فيدخل بذنبه ذلك الجنة»
قلت: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله: «يكون ذلك الذنب نصب عينيه، تائبًا منه، فارّاً حتى يدخل الجنة».[٤]

(٢١) وقال صلى الله عليه وآله: «من تاب قبل موته بسنة، قَبِلَ الله توبته»
ثم قال: «إنّ السنة لكثير من تاب قبل موته بشهر، قَبِلَ الله توبته...
ثم قال: إنّ الشهر لكثير، من تاب قبل موته بجمعة، قَبِلَ الله توبته..
ثمّ قال: إنّ الجمعة لكثير، من تاب قبل موته بيوم، قَبِلَ الله توبته...
ثم قال: إن يومًا لكثير، من تاب قبل أن يعاين ملك الموت، قَبِلَ الله توبته».[٥]

---

١. الكاشاني: المحجة البيضاء ٨/٧.
٢. النراقي: جامع السعادات ٦٨/٣.
٣. النراقي: جامع السعادات٦٨/٣.
٤. النوري: مستدرك الوسائل ١١٧/١٢.
٥. الكليني: الكافي ٤٤٠/٢، كتاب الإيمان والكفر، أبواب فيما أعطى الله عزّ وجل آدم /ج٢.

(٢٢) وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أحبّ العباد إلى الله المنيبون التائبون».[١]

(٢٣) وقال الإمام الباقر عليه السلام لمحمد بن مسلم: «ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة...

فقلتُ: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب، وعاد في التوبة؟

قال عليه السلام: يا محمد بن مسلم: أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه، ويستغفر منه، ويتوب، ثمّ لا يقبل الله توبته؟

قلت: فإن فعل ذلك مرارًا، يذنب ثمّ يتوب، ويستغفر...

فقال عليه السلام: كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة، وإنّ الله غفور رحيم، يقبل التوبة، ويعفو عن السيئات، فإيّاك أن تقنط المؤمنين من رحمة الله»[٢].

(٢٤) وقال عليه السلام: «إذا بلغت النفس هذه - وأهوى بيده إلى حلقه - لم يكن للعالم توبة، وكانت للجاهل توبة».[٣]

(٢٥) وقال عليه السلام: «إنّ آدم عليه السلام قال: يا ربّ سلّطت عليّ الشيطان، وأجريته مني مجرى الدم فاجعل لي شيئًا...

فقال: يا آدم جعلت لك، أنّ من همّ من ذريتك بسيئة لم تكتب عليه، فإن عملها كتبت عليه سيّئة، ومن همّ منهم بحسنةٍ، فإن لم يعملها كتبت له حسنة، فإن هو عملها كتبت له عشرًا...

قال: يارب زدني ...

قال: جَعلتُ لك: أنّ من عمل منهم سيئة ثمّ استغفر غفرت له..

قال: يارب زدني..

---

١. النراقي: جامع السعادات ٦٧/٣.

٢. الكليني: الكافي ٤٣٠/٢ - باب التوبة /ح٦.

٣. الكليني/ الكافي ٤٤٠/٢ باب فيما أعطى الله آدم /ح٣.

قال: جعلت لهم التوبة، وبسطت لهم التوبة حتى تبلغ النفس هذه...
قال: يا ربّ حسبي».[1]

(٢٦) وقال الإمام الصادق عليه السلام: «العبد المؤمن إذا أذنب ذنبًا أجلّه الله سبع ساعات، فإن استغفر الله لم يكتب عليه شيء، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتبت عليه سيئة، وإنّ المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربّه فيغفر له، وإن الكافر لينسى من ساعته»[2].

(٢٧) وقال عليه السلام: «إنّ الله يفرح بتوبة عبده المؤمن إذا تاب كما يفرح أحدكم بضالته إذا وجدها»[3].

(٢٨) قال عليه السلام: «إذا تاب العبد توبة نصوحًا أحبّه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة».
فقلتُ: و كيف يستر عليه ؟
قال عليه السلام: ينسي ملكيه ما كتبا عليه، و يوحي الله الى جوارحه اكتمي عليه ذنوبه وإلى بقاع الأرض أن اكتمي ما كان يعمل عليك من الذنوب، فيلقى الله تعالى حين يلقاه، وليس شيئ يشهد عليه بشيئ من الذنوب»[4].

١. الكليني: الكافي ٢/ ٤٤٠ باب فيما أعطى الله آدم /ح١.
٢. الكليني: الكافي ٢/ ٤٤٠ باب الاستغفار من الذنوب /حس٣.
٣. الكليني: الكافي ٢/ ٤٣٠ باب التوبة /ح١٢.
٤. الكليني: الكافي ٢/ ٤٣٠ باب التوبة /ح١.

التّوبة النّصوح

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ...﴾ (**التحريم** / ٨).

متى تكون التوبة توبة نصوحًا

حينما تتوفر على مجموعة شروط نوجزها فيما يلي:

شروط التوبة النصوح:

الشّرط الأول: أن تكون التوبة خالصة لله تعالى ...

مـن خلال هذا (الخلوص لله تعالى) يتشكّل الأساس الصّحيح لانطلاقة التوبة والإنابـة وتنبعث العزيمـة الصّادقة للتحرر من الأهـواء و الشهوات، والمعاصي والذنوب ...

التوبة يجب أن تنطلق من:

- حبّ الله تعالى ..
- الخوف من الله ..
- الرجاء في ثواب الله ..

و إلا كانت توبة المرائين الكاذبين ..

ليست توبة نصوحًا تلك التي تتحرك بدوافع الرغبة في المال أو الجاه أو السمعة أو بدوافع الخوف من السلطان أو أي إنسان، إنّ الإقلاع عن المعاصي و الذنوب لا يشكّل خطوة صادقة و جادة في اتجاه التوبة النصوح، إلا إذا تجرّد من الأغراض الذاتيّة المشدودة إلى أهواء النفس وشهواتها.

■ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . . .﴾ (البينة/٥).

■ ﴿. . يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلًا﴾ (النساء/١٤٢).

■ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج/١١).

■ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله تبارك وتعالى لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».[1]

■ وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه، ولم ينس ذكر الله فيما تسمع أذناه، ولم يحرّك صدره بما أعطي غيره».[2]

■ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا بن مسعود إياك أن تظهر من نفسك الخشوع والتواضع للآدميين، وأنت فيما بينك وبين ربك مصرّ على المعاصي والذنوب، يقول الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر/١٩)».[3]

الشرط الثاني: النّدم على فعل المعاصي...

التائبون الصادقون يعيشون «ندمًا حقيقيًا» على ما صدر عنهم من ذنوب ومعاصي ومكابرة لله سبحانه.

وللندم الحقيقي علامات:

- توجّع القلب واكتواؤه بنار الحسرة والآهات والأحزان.
- الشعور بتأنيب الضمير والوجدان.
- طول البكاء وانسكاب الدموع.

---

١. الريشهري: ميزان الحكمة ٦/٢٦٠١.
٢. الريشهري: ميزان الحكمة ٢/٤٧٤٤.
٣. الطبرسي: مكارم الأخلاق، ص٤٥٧.

إنّ توبة لا تحمل حرارة الندم، ولا ينبض في داخلها وهج التأوه والألم، ولا تبعث في القلب الحسرات، ولا تستنطق في العيون العبرات، تلك توبة باردة، لا تقوى أن تغسل ما علق بالنفس من شوائب وتلوّثات، ولا تقوى أن تحرّر الإنسان من الجرائر و الموبقات.

■ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «طوبى لصورةٍ نظر الله إليها تبكي على الذنب من خشية الله عزّ وجل، لم يطّلع على ذلك الذنب غيره».[1]

■ وقال النبي صلى الله عليه وآله: «البكاء من خشية الله يطفئ بحارًا من غضب الله».[2]

■ وجاء في دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «. . . وانقلني إلى درجة التوبة إليك، وأعنّي بالبكاء على نفسي، فقد أفنيت بالتسويف والآمال عمري، وقد نزلتُ منزلة الآيسين من خيري، فمن يكون أسوء حالاً منّي إن أنا نقلت على مثل حالي إلى قبرٍ لم أمهّده لرقدتي ولم أفرشه بالعمل الصالح لضجعتي، ومالي لا أبكي ولا أدري إلى ما يكون مصيري، وأرى نفسي تخادعني وأيامي تخاتلني، وقد خفقت عند رأسي أجنحة الموت، فمالي لا أبكي، أبكي لخروج نفسي، أبكي لظلمة قبري، أبكي لضيق لحدي، أبكي لسؤال منكر ونكير إياي، أبكي لخروجي من قبري عريانًا ذليلاً حاملاً ثقلي على ظهري أنظر مرةً عن يميني وأخرى عن شمالي إذ الخلائق في شأن غير شأني لكل أمرء منهم يؤمئذ شأن يغنيه، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ وذلّة . . .﴾».[3]

---

١. الصدوق: ثواب الأعمال، ص١٦٧.

٢. الصدوق: من لايحضره الفقيه ٣١٧/١.

٣. القمّي: مفاتيح الجنان، الفصل الثالث، المطلب الأول، القسم الثاني.

الشرط الثالث: العزم على عدم العود.

من مكوّنات التوبة أن يتوفّر التائب على عزيمة وتصميم أن لا يعود إلى ممارسة الذنب و إلا كان مستهزءًا.

- قال الإمام الصادق عليه السلام: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، و المقيم على الذنب و هو يستغفر منه كالمستهزئ».[1]

و لا يعني العزم و التصميم أن لا يسقط الإنسان مرة أخرى في الذنب والمعصية، مادام هذا السقوط ليس مبيّتًا سلفًا، وهنا يحتاج الإنسان إلى توبة أخرى، وهكذا...

ما يتنافى مع التوبة أن يحمل الإنسان في داخله (نية العود إلى الذنب)، كمن يقرر الإقلاع عن الذنب في شهر رمضان وهو يحمل في داخله نية مبيتة أن يعود إلى ممارسة الذنب بعد شهر رمضان، التوبة لا تكون مؤقتة أو مجزءة، وإن كان ذلك ربّما قاد إلى توبة حقيقيّة، فقد يستحلي الإنسان أجواء التوبة والطاعة فيتخذ قرار المواصلة والاستمرار.

وهنا يمكن أن نقسّم الناس في التعاطي مع التوبة إلى عدة أقسام:

القسم الأول: التائبون المستقيمون على التوبة إلى آخر العمر..

وهذا النمط من الناس اتخذوا (قرار التوبة) بكل شروطها ومكوناتها، وصمّموا على الاستمرار في خطّ التوبة إلى نهاية العمر، متوكلين على الله كلّ التوكل، ومراقبين أنفسهم كل الرقابة، ومحاسبين أنفسهم كل المحاسبة، فيشملُهم الله عزّ وجلّ بفيضه، وكرمه، ورحمته، فيبقون محافظين على التوبة إلى آخر أعمارهم.

---

١. الكليني: الكافي ٢/ ٤٣٠، باب التوبة /ح١٠.

القسم الثاني:

تائبون قرروا التوبة صادقين، مصممين على الاستمرار إلى آخر العمر، ومارسوا المحاسبة، إلا أنّهم في بعض المراحل يصابون بالضعف، فينتكسون ويسقطون في المعصية، غير أنّهم سرعان ما يندمون، ويعودون إلى الله تائبين مرة أخرى.

• ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران/١٣٥).

وقد تُكرّر الانتكاسة عند هؤلاء مرات ومرات، إلا أنّها انتكاسات مؤقتة يعقبها أوبة وعودة وتوبة، ولا يتنافى هذا التكرار في الانتكاسة مع صدق التوبة ما دام التصميم والعزم على استمرار التوبة قائمًا...

القسم الثالث:

تائبون قرروا التوبة صادقين، إلا أنهم ينتكسون بعد حين، ويسقطون في مستنقع المعصية مرة أخرى، ولا يكتب لهم الخلاص من هذا المستنقع، وتستمر بهم الحياة في المعصية إلى نهاية العمر، هؤلاء:

• ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ . . .﴾ (المجادلة/١٩).

• ﴿... وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ﴾ (النمل/٢٤).

• ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ (محمد/٢٥).

القسم الرابع:

أولئك الذين اتخذوا قرار الإقلاع عن بعض المعاصي، واستمروا على مقارفة معاصي أخرى...

وهنا نتساءل: هل تتحقق التوبة مجزّأة ؟

يوجد اتجاهان:

الاتجاه الأول:

يذهب إلى أنّ التوبة لا تتجزّأ، فالتوبة عودة إلى الله وندم على اقتراف الذنب فلا تتحقق العودة إلى الله، ولا يتحقق الندم ما دام الإنسان مصرًا على محاربة الله من خلال ارتكاب بعض المعاصي والذنوب وخاصة إذا كانت من الكبائر.[1]

الاتجاه الثاني:

يذهب إلى أنّ التوبة تتجزّأ بشرط أن تكون الذنوب التي يتوب عنها الإنسان مخالفة بالنوع للذنوب التي لا يتوب عنها...

من أمثلة ذلك:

- أن يتوب عن الكبائر دون الصغائر.
- أن يتوب عن القتل والظلم دون بعض حقوق الله...
- أن يتوب عن شرب الخمر دون الزنا..
- أن يتوب عن الكذب دون الغيبة..

وفي هذه الحالات يندفع عنه إثم ما تاب عنه، ويكتب عليه إثم ما لم يتبْ عنه، نعم مع التماثل في النوع لا تتحقق التوبة، فلا معنى أن يتوب عن ترك صلاة

١. النراقي: جامع السعادات ٨٢/٣.

الظهر مع الإصرار على ترك صلاة الصبح.[1]

القسم الخامس (من أقسام تعاطي الناس مع التوبة):

أولئك الذين يقررون الإقلاع عن المعاصي والذنوب مؤقتًا، في يوم الجمعة مثلًا، في شهر رمضان، في أثناء الحج والعمرة والزيارة، هؤلاء لا يسمّون تائبين لعدم توفّر أحد الشروط اللازمة للتوبة وهو «العزم على عدم العود».

الشرط الرابع (من شروط التوبة النصوح): تدارك ما فرّط فيه:

التفريط له عدة جوانب:

الجانب الأول:

تَرْكُ الطاعات الواجبة من صلاة أو صيام أو حج أو زكاة أو خمس أو كفارة. وطريق التوبة من هذا التفريط أن يجتهد في قضاء ما فرّطّ فيه قدر الإمكان.

الجانب الثاني:

فِعْلُ المحرمات التي هي بينه وبين الله عز وجل ولا تتعلق بحقوق العباد، مثل: شرب الخمر، الكذب، الزنا، الاستماع إلى الملاهي المحرمة، النظر المحرم... إلى أخره

والتدارك هنا:

- بالندم على ارتكاب تلك المحرمات.
- التصميم على عدم العود إليها.
- الإكثار من الطاعات حتى يمحو تلك السيئات.

---

١. النراقي: جامع السعادات ٨١/٣.

■ ﴿. . . إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾(هود/١١٤).

الجانب الثالث:

الذنوب التي بينه وبين العباد والتي تسمى «مظالم العباد» أو «حقوق العباد» فالأمر فيها صعب وشديد.

هنا يرتكب المذنب جنايتين:

أ- جناية على حق الله سبحانه، فإنّ الله قد نهى عن ظلم العباد.

هذه الجناية يتداركها بالندم والحسرة والتصميم على عدم العود، والإتيان بالحسنات لتكفير السيئات، فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم، ويكفر عن غصب أموالهم بالإكثار من الصدقات، وهكذا...

ب- جناية على حق العباد:

١. فما كان في (النفوس):

- فإن كانت الجناية (قتلَ الخطأ) فالتوبة بتسليم الدية إلى أصحابها.
- وإن كانت الجناية (قتلَ العمد) فالتوبة بالرجوع إلى وليّ الدم، فإن شاء عفا عنه وإن شاء أقتص...

٢. ما كان في (الأموال):

- بإرجاع الأموال إلى أصحابها.
- أو بالاستحلال منهم.
- وإن عجز عن ذلك، فليتصدق عنهم ما أمكن.
- وإلا فعليه بالدعاء لهم، وكثرة الاستغفار والابتهال إلى الله تعالى أن يرضيهم عنه يوم القيامة، فما من مظلوم إلا ويقف يوم القيامة بين يدي الله سبحانه

مطالبًا بحقّه ممن ظلمه، فتؤخذ من حسنات الظالم وتوضع في موازين المظلوم، فإن لم تف حسنات الظالم حمل من سيئات المظلوم، فيهلك بسيئات غيره.

٣. ما كان في (الأعراض) كالقذف أو الشتم أو الغيبة أو البهتان.

فالتوبة هنا:

- أن يكذّب نفسه عند من قال ذلك لديه مع الإمكان، إذا لم تترتب مفسدة أكبر.
- الاستحلال ممن ظلمهم مع الإمكان.
- كثرة الاستغفار لنفسه، وكثرة الدعاء لمن ظلمهم.

إنّ توبة لا تحمل حرارة الندم، ولا ينبض في داخلها وهج التأوه والألم، ولا تبعث في القلب الحسرات، ولا تستنطق في العيون العبرات، تلك توبة باردة، لا تقوى أن تغسل ما علق بالنفس من شوائب وتلّوثات، ولا تقوى أن تحررّ الإنسان من الجرائر و الموبقات ...

موسم نداءات التّوبة الثّالث

تحت عنوان

كِتَابًا مَّوْقُوتًا

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ النساء: ١٠٣

نرحب بتواصلكم معنا، وبكل ملاحظاتكم واقتراحاتكم:

مبنى ٤٠ ، طريق ٤٨ ، مجمع ٤٤٤ ، هاتف: ١٧٥٩٢٦٧٢ فاكس: ١٧٥٩٦٥٤٠ ، الإدارة النسويّة : تليفاكس: ١٧٥٩٢٦٧٣

حلة العبد الصالح ، مملكة البحرين - الموقع الإلكتروني :www.olamaa.net البريد الإلكتروني :info@olamaa.net